

# حكم قطر والاستعداد لمواجهة التهديد ١

الكاتب: د راغب السرجاني



## الحالة السياسية والاجتماعية لمصر

من الناحية السياسية كان الوضع متازماً جدًا، أمراء مصر على صراع شديد على الحكم بين أواخر الأيوبيين وأوائل المماليك، ففي وقت اجتياح بغداد كان يتولى حكم مصر طفل لم يبلغ خمس عشرة سنة من عمره، طفل اسمه نور الدين علي، ابن السلطان السابق لمصر عز الدين أبيك، وكان وزيره الأول هو الأمير قطز رحمة الله.

أما الوضع الاقتصادي فكان متدهوراً للغاية في مصر، فقد أنهكت مصر سلسلة من الحملات الصليبية المتتالية، آخر واحدة منهن كانت موقعة المنصورة الشهيرة ضد الحملة الصليبية السابعة بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا، وانتصر فيها المسلمون انتصاراً باهراً في سنة (648هـ)، يعني: قبل تدمير بغداد بشمان سنين.

ومع رداءة هذا الوضع السياسي والاقتصادي، إلا أن الشعب لم يكن متاثراً تماماً بهذه الظروف السيئة التي تمر بها البلاد، فقد كان لدى الشعب شيئاً في منتهى الأهمية في تلك الفترة: العلم، والجهاد، فقد كانوا دائمًا يعظمون جداً من أمر العلم والعلماء، ويعظمون من أمر الجهاد في سبيل الله، فقد كان الشعب لديه حمية للجهاد، ألف حياة المشقة والبذل من جراء الحروب المتتالية التي مر بها، ونتيجة صدق العلماء الذين كانوا يعيشون في هذه الفترة من الزمان.

## استلام قطز حكم مصر

في سنة (657هـ) وبعد أن دمرت بغداد، وبدأ التتار في اجتياح الشام؛ رأى الأمير قطز النائب الأول للسلطان الطفل نور الدين علي أن أمر البلاد لن يصلح، وأن مقاومة التتار مستحيلة والبلاد تحت حكم طفل لا يستطيع أن يدبر

شئون نفسه فضلاً عن شعبه وأمته، فقام قطز رحمه الله بعزل الطفل السلطان، ووضع نفسه على كرسي الحكم في مصر، وبدأ يعد العدة لأمر عظيم، جمع قطز المستشارين من كبار المماليك وكبار قواد الجيش والعلماء، وأشهرهم العز بن عبد السلام رحمه الله، وكان قد تجاوز الثمانين عاماً في ذلك الوقت، ثم قال لهم: إنه لم يطلب الملك لذاته وإنما طلبه لحرب التتار، فإذا كتب الله له النصر على التتار ترك الشعب يختار أميره بعد ذلك بإرادته.

إذا: قطز صرح لأمرائه أنه ما طلب الملك إلا لحرب التتار، فبدأ الأمراء المماليك يتربدون، فقد وصلت أنباء التتار المخيفة عن حرب التتار، لكن قطز رحمه الله بدأ يضرب لهم مثلًا رائعاً في فهمه للإسلام، ويعطي لهم قدوةً راقية في الجهاد، لقد أعلن قطز لهم أنه سيذهب بنفسه لحرب التتار، ويكون مع جنوده في قلب المعركة، ولن يرسل جيشاً ويبقى هو في عرينه بمصر، بل سيذوق مع شعبه ما يذوقون، ويتحمل ما يتحملون، ولو أرسل قطز جيشاً ويفي هو في القاهرة ما لامه أحد، ولكنه لم ير هناك وسيلة أفضل من ذلك؛ لتحميس القلوب الخائفة، وتشفيت الأفءة المضطربة.

فقه قطز رحمه الله ما علمه الناس نظريًا لا عمليًا، لقد فقه أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها، فقه أن الشجاعة لا تقصر الأعمار، وأن الجن لا يخلد الإنسان في الحياة، فقه أن الحياة بعزة ساعة خير من البقاء أبد الدهر في ذلة وهوان.

ثم قام قطز رحمه الله وقال للناس: من للإسلام إن لم نكن نحن؟ فضج الأمراء بالبكاء وقاموا خلفه ينادون بالجهاد في سبيل الله، وقد علم أنه من كانت هذه صفتة فهو منصور إن شاء الله.

## تجهيز الجيوش وإعداد العدة

وقام قطز رحمه الله في نشاط يجهز الجيوش ويععد السلاح ويرتب الخيول ويحمس الناس، ولكن واجهته مشكلة ضخمة، وهو أن بيت المال يعاني من ضائقه شديدة، والحالة الاقتصادية متعددة، فأراد قطز رحمه الله أن يفرض

على الناس الضرائب لتجهيز الجيش، فقام إليه العز بن عبد السلام رحمه الله، وقال له ولأمراء المماليك جميعاً: إذا طرق العدو البلاد وجب على العالم كلهم قتالهم، وجاز أن يؤخذ من الرعية ما يستعان به على جهادهم -أي: فوق الزكاة- ثم علق هذا الأمر على أمرتين:

الشرط الأول: ألا يبقى في بيت المال شيء.

والشرط الثاني: أن تبيعوا مالكم من الممتلكات والآلات، ويقتصر كل منكم على فرسه وسلاحه وتساووا في ذلك أنتم وال العامة، وأماأخذ أموال العامة مع بقاء ما في أيدي قادة الجندي من الأموال والآلات الفاخرة فلا، فاستجابة قطر رحمه الله وباع ما يملك، وأمر النساء بذلك، وجهز جيشاً صادقاً من المسلمين، وقرر قطر رحمه الله أن يخرج بجيشه إلى حرب التتار في فلسطين، ولا ينتظر حتى يقدموا عليه في مصر، فقامت دعوة في أمراء المماليك بأن يبقى قطر في مصر بجيشه، ولا يخرج إلى فلسطين لقتال التتار، وأن يبقى لحماية مصر، فمصر هي مملكته، وفلسطين مملكة أخرى. هكذا قيل.

## حماية مصر

ولكن قطر رحمه الله جمع أمراءه، وأفهمهم حقائق غابت عن أذهان كثير منهم، أفهمهم أن حماية مصر يبدأ من حدودها الشرقية، ولا يمكن أبداً أن يحيا أهل مصر في أمان والعدو الصليبي والتتر يعيش في فلسطين. هذه واحدة.

الثاني: أنه من الأفضل عسكرياً أن ينقل المعركة إلى أرض خصمه، وأن يكون له خط رجعة، بدلاً من أن تحدث هزيمته في مصر إن حدثت، فتضيع البلاد برمتها.

الامر الثالث: أنه من الأفضل عسكرياً أن يفاجئ أعداءه قبل أن يستعدوا له.

الامر الرابع: أن لهم فوق ذلك كله دوراً هاماً ناحية إخوانهم في فلسطين والشام والعراق، ولن تزول أقدامهم يوم القيامة إلا بعد أن يسألوا عن هذا الدور.

الامر الخامس: أن لهم دوراً في حرب أعداء المسلمين، حتى وإن لم يفكروا أصلاً في دخول قطرهم المحدود ما داموا يعيشون في أرض الله الفاسد.

واقتتنع المخلصون بالأمر، وبدأ الشيخ العز بن عبد السلام رحمه الله يذكر الناس بالجهاد، واعتلى العلماء المجاهدون منابر البلاد، وألهبوا مشاعر الناس بالحمية لهذا الدين، ورغبوا الناس في الجنة، وزهدوهم في أمر الدنيا وعظموا الجهاد وأهله، وذكروهم بأيام الله، ذكروهم ببدر واليرموك والقادسية، وذكروهم بحطين، التي لم يمض عليها إلا (75) عاماً، وذكروهم بمعركة المنصورة، التي لم يمض عليها إلا عشر سنين.

ومع كل هذا إلا أن فريقاً من المسلمين دبّ الرعب في قلوبهم، وجالت بأذهانهم صور ما سمعوه عن التتار، فبدأ بعض الناس بالفرار إلى المغرب وإلى اليمن وإلى الحجاز، فهل قيدهم قطر؟ أو أجبرهم على الاشتراك؟ أبداً إنه تركهم في غيهم يعمهون، لقد فقه قطر رحمة الله أن النصر لن ينزل إلا على الثابتين الذين لا يولون الأدبار، قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتوهَا [الأنفال: 45].

وفقه أن الجيوش لا تنصر بآعدادها ولا عتادها، وإنما تنصر بطاعتها لله عز وجل واعتمادها عليه.

وفقه أن هؤلاء الذين فروا لو خرجوا مع الجيش لاضطراب الجيش وانهزم، قال تعالى: لَوْ خَرَجُوا فِيهِمْ مَا زَادُوكُمُ الْأَخْبَارُ وَلَا وَضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيهِمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ [التوبية: 47].

وفقه قطر أن الذي يوهب الحياة هو الذي يحرص على الموت، وأن الذي يوهب النصر هو الذي يحرص على الجنة.

المصدر:

محاضرة للدكتور راغب السرجاني بعنوان التتار وغزو العراق

الكلمات المفتاحية:

#raghib-sarjani #عين-جالوت #التتار #قطز

تنويه: نشر مقال أو مقتطف معين لكاتب معين لا يعني بالضرورة تزكية الكاتب أو تبني جميع أفكاره.

https://murabet.com